الانسان والآلات

مقالة لهنري فورد

هنري فورد

دبّج هذه المقالة يراع المستر هنري فورد ملك السيارات المعروفة باسمه والذي فاز باجتهاده ونشاطه وثباته من حضيض الفقر الى عرش الملايين الكثيرة وهو بهذا المقال يعرّف القارىء بنظريته الى الانسان والآلات

(الاخاء)

أن الناس الذين ينازعون ويتداعون في ما يسمونه «مضمار البقاء» أو بعبارة أوضح «النزاع في سبيل الحياة» غدوا في العهد الأخير يظهرون تخاوفهم من أن الانسان سيصبح في العاجل القريب أو انه أصبح اليوم عبداً للآلات والعدد المختلفة التي حلت محله وقامت بالاعمال التي كان يعملها وأنه سيأتي يوم تستغني فيه المعامل والمصانع عن أيدي الرجال العاملة . وهم يظهرون تخاوفهم هذه تارة بالكلام مطولاً بالكتابة ونشر المقالات الضافية في الصحف والمجلات والكتب وأغرب ما في ذلك ان هؤلاء المتخوفين المتطيرين من الآلات والعدد يكتبون مقالاتهم بواسطة الآلات الكاتبة وبذلك ينقضون نظرياتهم ويقوضون تخاوفهم ذلك لانهم يتمتعون بخيرات ومنافع الآلات وفي الوقت نفسه يرفعون عقيرتهم بالشكوى من أن الآلات تزق كيان الانسان وتجعله لا قيمة له في الاعمال

هؤلاء الشاكون اذا جلسوا للراحة في غرفهم المملوءة بالرياش التي صنعتها الآلات يسلقونها بألسنة حداد ويقولون انها حلت محل الانسان في جميع شؤون الحياة الصناعية وانه سيأتي يوم — لا يرونه بعيداً — يصبح فيه الناس بلا عمل فيزداد عدد العمال العاطلين فيزداد بزيادتهم الشقاء والعناء ولو أنعمنا النظر لما وجدنا محلاً لهذه العبارات الشعواء التي يشنها الناس على الآلات لأنها أي الآلات لم تظهر وحدها في عالم الوجود ولم تصنع نفسها ولا خرجت من أعماق البحار وهجمت على الناس الذين صنعوها واخترعوها وتفاخروا بها

أن الآلات كما لا يخفى هي بنت الحاجة والاختراع وهي صنيعة الانسان وعمل يديه بل هي عبدته التي تنفذ اوامره وتريحه من التعب والوصب . انها لم تظهر للوجود بإرادتها وانها بدون مساعدة الانسان صانعها لا تتحرك ولا تعمل شيئاً لأنه ليس لها حياة ولا قوة متحركة قائمة بنفسها . وان الانسانية التي تخترع كل يوم الآلات العديدة لا يمكن أن تستعبد للآلات

يقول هؤلاء الشاكون أيضاً ان الالات توقف وقي الانسان العقلي والجسدي والعملي وتجعله يقف حياتها وقفة العبد الذليل الذي لا حول ولا طول له ولذلك فانهم يفضلون الرجوع الى العصر القديم — عصر العمل بالايدي — ذلك العصر الذي أنهك قوى الناس وأضناها

انا والحق يقال اذا رجعنا الى عهد العمل بالأيدي نجد أنواعاً من الامثال الدالة على ما كان يجده العمال من التعاسة والشقاء . وانني أكتفي بايراد مثل واحد يرجع تاريخه الى عام ١٨٣٢ عندما أراد السير صموئيل كونسون عضو مجلس النواب ان يختبر بنفسه حالة العمال وما يقاسونه من الشقاء ولا سيما عمال معامل الغزل والنسيج فقد زار عدة مصانع منها وسأل العمال عدة أسئلة ونحن نورد بعض هذه الاسئلة وأجوبتها .

س — في أية ساعة تذهب بنانك الى المصنع ؟

ج — في أيام الموسم التي يمتد ستة أسابيع يذهبون الساعة الثالثة صباحاً ويرجعون الى المنزل الساعة العاشرة مساء وأحياناً الساعة العاشرة والنصف

س ـ هل تستيقظ بناتك بنشاط في مثل هذا الوقت المبكر وهل يستيقظن بمحض ارادتهن؟

ج كنا في أول الامر نلجأ الى وسائل عنيفة لدى ايقاظهن : حيث كنا نجر الفراش من تحتهن حتى يستيقظن

س ـ كم ساعة تراح بناتك ؟

ج هن ينمن الساعة الحادية عشرة مساء اي حالا بعد أن يتناولن طعام العشاء وتضطر امرأتي ان تسهر طول الليل لكي توقظ البنات في الوقت المعين

س ـ هل يتعب العمل بناتك ؟

ج ـ بدون ريب ! لانهن أحياناً ينمن على المائدة وقطعة الخبز أو اللحم في أفواههن .

عملت هذه التجربة والاختبار في لندرا وكانت في ذلك الوقت تعد من أرقى الامم المتمدينة والحياة الاشتراكية كانت منتشرة عندها أكثر من غيرها

ان صناعتها كانت قائمة على أجساد العمال الصغار وان مدنيتها نمت على تشغيل العمال الكبار مدة ست عشرة ساعة في اليوم أولئك العمال الذين كانوا يعدون أنفسهم سعداء اذا تمكنوا بهذه الاشغال الشاقة ان يسدوا رمقهم مع أولادهم . ان مثل هذه المدنية تشبه الحمحية والبربرية القديمة التي كانت قائمة على استعباد الناس . في ذلك العهد كانت انكلترا تملك عبيداً محدوداً من الالات ولم تكن واحدة منها تستطيع أن تقوم مقام الايدي العاملة ولذلك كان العمال الصغار يشتغلون ضعف الساعات التي يشتغلونها اليوم ويأكلون طعاماً أردأ مما يأكلونه اليوم ثلاثة أضعاف

أن الناس الذين يقولون بالرجوع الى عهد العمل بالايدي ليس عندهم أقل تصور لحالة العمال في ذلك العهد البائد ؟ وكم ساعة كانوا يشتغلون ؟ وأية أطعمة يتناولون ؟

وفي هذه الايام تحسنت حالة العمال تحسناً محسوساً فانهم يشتغلون ساعات اقل ويتناولون رواتب أكثر ولا ريب ان الفضل في ذلك عائد الى الالات التي خففت متاعب الانسان وزادت في الانتاج

يؤلف المؤلفون الكتب وينشرون المقالات يدافعون بها عن العمال وعن حالتهم

ومعيشتهم ويقولون عنهم انهم يتبرمون من أشغالهم التي يقضون فيها سنين عديدة وهي سائرة على نسق واحد مضجر محل والذي يمعن النظر في هذه الاقوال يجد أن جلها السخافة وسداها الحماقة ولا يتصد منها غير التشويش والتهويش على العمال ... ان حياتنا جميعها سائرة على نمط واحد فما نفعله اليوم نكرره غدا وهكذا دواليك ولو ألقينا نظرة على حالة العمال في العهد القديم لوجدنا أنها حياة عملة فان العامل كان اذا أنهى عمله اما أن يذهب الى الحانة حيث ينفق في ساعة ما يكسبه في أيام أو انه يذهب الى منزله وينام من شدة التعب الذي قاساه وأما اليوم فان وسائل التسلية والملاهي توفرت كثيراً والساعات القليلة التي يشتغل فيها العامل تمكنه من ارتياد أماكن اللهو مع أفراد أسرته

أننا وجهنا التفاتنا الى وجهة نظر الكتاب وجعلنا في مصانعنا تبدل الاعمال التي يعملها العمال فالعامل الذي يعمل هذا الاسبوع عملا تعهد له في الأسبوع القادم عملا آخر حتى لا يتطرق اليه الضجر والملل

يقول المنتقدون أيضا أن العمال في هذا العصر يشيخون قبل الأوان وكثيرون منهم يعروهم الهزال وهذا الانتقاد غريب في بابه لأننا اذا نظرنا الى الحقيقة نجد أن العمال في القرن العشرين يعيشون أكثر من زملائهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

نحن نعيش في كوكب يدور بسرعة لا نلحظها . فهل شعر انسان أن الأرض بدورانها تجذبه أحيانا الى اليمين أو الشمال . ونحن منذ ظهورنا على الأرض تعودنا على تلك السرعة حتى لا نعود نشعر بها ولا نعيرها أقل اهتمام . وعلى هذا القياس يشتغل الصانع في المصنع فيتعود على العمل ولا يضعف ولا تهيج أعصابه .ولا يصاب بالضعف وتهيج الاعصاب الا العمال الذين لا يقومون بواجباتهم خير قيام . واذا لم توجد لدينا هذه الآلات المديدة فاننا ما كنا نستطيع جمع الحروف بسرعة وطبع الجرائد والمجلات والكتب التي يوزع منها الآن مئات ملايين النسخ . وقد قيل لي منذ عشرين سنة أن عدد قراء الجرائد الدورية ما كان يزيد على المليون وأما اليوم

فانك لا تجد منزلا في المدن الكبرى أو المزارع الصغرى الا ويشتري عدداً من الجرائد أو المجلات

واصدار مثل هذا العدد الهائل من المطبوعات الدورية يقتضي لهقوة عاملة وصبرا عظيما ومع ذلك فلا ترى أحداً من عمال المطابع والمحررين والكتاب يشكو الضجر وما ارتقى فن الطباعة الا عندما وجدت آلاته المتعددة

ان عظمة أميركا قامت على الآلات التي اخترعتها العقول المفكرة السامية . والآلة هي رمز سيادة الانسان على المادة

واني لا أقول أننا بلغنا حد الكمال في اختراع الآلات بل أن الزمان سيبرز لنا من أثمار العقول الناضجة آلات أخرى ذات أهمية عظمى . والآن كل واحد منا يفهم اذا اخترعت آلة فانها لا تأتي بالفائدة المطلوبة الا اذا كان نفعها يعود على العموم أو اذا آمن بنفعها الناس أجمعون . وقد كان الشعراء والكتاب من قبل يتغنون بهذه الفكرة ولكن الآن يتغنى بهذه الفكرة المهندسون وهم يحق يتغنون بها . انني كنت ولم أزل أعد المهندسين أنبياء حكماء وأقول الان أيضاً نحن في حاجة كبرى الى المهندسين الميكانيكيين والاشتراكيين والسياسيين لأنهم هم وحدهم يستطيعون ايجاد الفردوس الأرضي الذي تنبأ عنه الانبياء العظام . هنري فورد

(الاخاء) عربنا ما كتبه المستر فورد بتصرف وقد حملت الينا أنباء أميركا : ان المستر فورد قرر قراراً جديداً أدهش به العالم الصناعي كما أدهشه منذ اثني عشرة سنة أعني حين جعل الحد الأدنى لأجر عماله في اليوم الواحد خمسة دولارات. وهو اليوم يجعل الاسبوع خمسة أيام فقط بدلا من ستة . وأربعون ساعة بدلا من ثمانية وأربعين اعني أن العمال سيقبضون أجر ستة أيام نظير عمل خمسة أيام ويستريحون السبت والاحد . ويقول المستر فورد أن القرار يتعلق بصالح العمل فحسب » وان معظم المنتوجات يستهلكها اولئك الذين يصنعونها . وهو يقول : « اعط الناس فراغاً أكثر يزيد ما يستهلكون ومتى زاد استهلاكهم زاد الانتاج »